الفصل الثانى

الميلاد

* ولد فى عالم من السحر والخرافة .
* عندما أراد والده تغيير اسمه بالطريقة القانونية .
* عندما منع من أكل الجبنة الرومى من أجل سيدى الطرطوشى .
* كان يصاب بالحمى كلما شاهد موكبًا جنائزيًا .
* أمنيته وهو طفل صغير أن يصبح محولجى قطارات .

لحظة الميلاد

حملت الأم فى وليدها الأوّل ، وجاءت الثمرة الأولى فى شجرة أسرتى الحكيم « أهل الريف » والبسطامى « أهل البحر » فى وليدها البكر .

كانت الأم والأب يقيمان فى « المحلة الكبرى » بجوار مقر عمله كوكيل نيابة ، ويتنقل من بلد إلى بلد ، كلما دعاه داعى العمل فى السلك القضائى .

ولما اقترب موعد وصول الحدث السعيد ، رأى الزوج ، أن ينقل زوجته الحامل إلى منزل الأسرة فى الإسكندرية ، لتجد العناية من والدتها وأختها الكبرى والعديل ، الذين كان من الممكن أن يسهروا عليها فى أثناء غيبته فى تلك الظروف .

عاشت الأم الحامل فى بيت الأسرة الهادئ الوادع فى حىّ محرم بك بالإسكندرية ، الذى يقع بين الأشجار ، بعيدًا عن شاطئ البحر ، الذى يلوح على مدى البصر ، قبل أن يمتدّ العمران ، ويفصل بمبانيه ومنشآته عن الشاطئ .

لكن هذا البيت كان يعيش فى جوٍّ من السحر والخرافة فى انتظار وصول الحادث السعيد ، فقد كانت الجدّة ، تلجأ إلى التعاويذ والطلاسم السحرية وإحراق البخور ، لتطرد الجنية ، التى كانت سببًا فى موت أطفالها الذكور الستة ، الذين أنجبتهم موتى ، بين مولد الأخت الكبرى والأخت الصغرى .

وقدر للأدب والفن والفكر ، أن يكسب علمًا من أعلامه الكبار ، فقد

سحقت جنية البحر ، وخرج الوليد البكر إلى الحياة ، فى الساعة الرابعة فجر يوم ٩ أكتوبر ١٨٩٨ .

وكان ساعة مولده ، هو بعينه ذلك الأديب المتأمل الساخر ، الذى عرفناه فيما بعد .

كتب فى « سجن العمر » يقول :

– روت لى والدتى – فيما بعد – أنى هبطت إلى الدنيا فى صمت ، دون بكاء أو صراخ أو عويل ، شأن الكثير من الأطفال ، فحسبتنى نزلت ميتًا فارتاعت وهى على فراش وضعها ، وسألت « القابلة » التى ألقت بى بعيدًا لتعنى بالأم : لماذا لا يبكى ويصيح ككل المواليد الأصحاء ؟ والتفت الجميع إلى ناحيتى ، فوجدونى أنظر – كما زعموا – إلى ضوء المصباح ، وأصبعى فى فمى شأن المتعجب !

وثائق الميلاد

ووثائق مولده ، تقول :

– إن الوالد كان وقت الميلاد غائبًا ، فتلقّى برقيةً ، ورسالةً من عديله إبراهيم سعود بك ، الذى كتب فى الرسالة يقول :

– « أرسلنا إليكم اليوم تلغرافًا تبشيرًا بقدوم نجلكم السعيد . وتفصيل الخبر أنه فى الساعة العاشرة مساءً ، شعرت السيدة حرمكم بألم يشبه الطلق فأرسلت الخادم إلى القابلة ، فامتنعت بقولها : ربما لا يكون الأمر كذلك . ولم نزل مترقبين حالتها إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، حيث أشتد الألم ، ولم يعد

هناك شك فى اقتراب الوضع ، وعندها أرسلنا الخادم . وفى الساعة الثالثة ، حضرت القابلة ، وباشرت أعمالها . . إلى أن كانت الساعة الرابعة ، أقبل « أخينا » مصحوبًا بسلامة الوصول ، وقد رأيته صباح اليوم ، فوجدته مثل أبيه ، ولكن بدون شوارب ! » .

ويمضى الحكيم ، ويقول :

– وقد أشّر والدى على هذا الخطاب بالقلم الرصاص ، وكتب يقول :

– « كنت هذا اليوم موجودًا بالسنطة ، فورد لى تلغراف من الأخ عديلى هذه صورته :

« رزقتم ولدًا فأطمئنكم وأهنئكم »

وقد كنت فى ذلك الوقت فى أودة الجلسة أتكلم مع القاضى على بك جلال فى شئون مختلفة ، وكانت الساعة وقتئذ ١٢ ونصف أفرنجى » .

ونقل والدى هذه التأشيرة إلى دفتر صغير ، اعتاد أن يدوّن فيه بعض شئونه ، وأضاف فيه إلى ما تقدم ، هذه العبارة :

– تحرر إلىّ خطاب آخر من عديلى ، يطلب فيه تسمية المولود ، فلم أوفق إلى اسم له ، فحررت إليه جوابًا بأنى فوضت الأمر إلى والدته فى التسمية .

ثم ذهبت إلى الإسكندرية ، وزرت زوجى ، فوجدتها متحسنة الصحة ، وأخبرتنى أن الغلام سمى باسم « حسين توفيق الحكيم » فلم يرق هذا الاسم عندى وصممت على تغييره بالطريقة القانونية » .

العفاريت

ونظرًا لنشأة الطفل الصغير فى محيط أسرة والدته ، التى كانت تعيش فى عالم السحر والخرافة ، فإنه كان يرى أشباح العفاريت ، متدثرةً فى البياض أو السواد وهى تظهر وراء الأبواب ، ثم تختفى بسرعة البرق .

وقد كان يرتاع منها أشدّ الروع ، ويحار فى طريقة ظهورها واختفائها ، حتى أدرك فيما بعد أن تلك الأشباح ، لم تكن من الجن ، وإنما كانت من الإنس ، لأن الخادم أو المرضعة ، كانتا تتدثران فى ملاءة الفرش البيضاء ، أو فى ملاءة أخرى سوداء لتخيفاه وتسكتاه ؛ لأنه كان طفلاً مزعجًا بشقاوته وعفرتته .

كان يلقى بأدوات المنزل وأوانيه من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها من النافذة ، والفرجة عليها والمرح بمنظرها وهى ملقاة فى الطريق .

وتعدّى الأمر ذات يوم إلى « غويشة » ذهبية للمرضع ، اشترتها بكل ما ادخرته من أجرها ، وانتزعها من صدرها غفلةً ، وألقى بها فى الطريق ، ولم يدر بعد ذلك إذا كانت المرضع قد استردّت قطعتها الذهبية أم لا – لأنه تصادف فى ذلك اليوم أن كانت والدته قد أغلقت عليها باب المنزل من الخارج بالمفتاح كعادتها عندما تغادر البيت ، حتى لا تنزل به المرضع إلى الطرقات .

ولما ألقى بتلك الحلية إلى الخارج ، جنّ جنون صاحبتها ، ووقفت تنظر إليها ، وهى ملقاة فى الشارع ، وجعلت تصيح وتستغيث بالمارة والجيران ليعيدوها إليها ، والطفل الصغير ينظر ضاحكًا فى سعادة لما يجرى حوله .

وقد منع فى سن الطفولة من أكل الجبن الرومى ، وفاءً لنذر عليه لسيدى الطرطوشى .

فقد تألّبت عليه الأمراض ، وهو بين الخامسة والسادسة ، واستغرقت عدّة سنوات .

ولهذا عالجته جدّته بطريقتها المألوفة ، وأخذته ذات صيف إلى مقام سيدى الطرطوشى ، الذى كان مشهورًا بشفاء الأمراض ، خاصةً للحمّى التى كانت تلازمه ملازمة رفيق السوء .

وفى سبيل الشفاء ، كان هنالك شرط لابدّ منه ، وهو الوفاء بنذره المعروف ، بالامتناع عن أكل الجبن الرومى ؛ لأنه كان يمقت الجبن الرومى على عكس الطفل الصغير الذى كان يحبها حبًّا شديدًا .

وقد وفّى بهذا النذر ، ولم تمسّها شفتاه فترةً طويلةً ، وهو يتساءل

– هل سيدى الطرطوشى ، وهو من أولياء الله الغابرين ، كان معاصرًا لظهور الجبن الرومى ؟

ومع هذا شفى من المرض .

الشحاذ الصغير

ويروى الحكيم من ذكريات الطفولة ، أن والدته ، قد تناوبتها العلل بعد ولادته ، وقيل يومها إن الحمل الأوّل ، ثم الولادة قد أضرّت بصحتها ، وانخلعت كلية من كليتيها من مكانها . وربما ترتدّ إلى موضعها بحمل آخر . حيث تحقق ذلك ، بعد أن ولدت أخاه الثانى « زهير » الذى أطلق عليه والده هذا

الاسم تيّمنًا باسم الشاعر الجاهلى « زهير بن أبى سلمى » الذى كان يحفظ معلقته المشهورة عن ظهر قلب .

وكان هذا المرض قد جعل الوالدة لا تشبع من الطعام ، فكانت تضع بجوار فراشها سلةً صغيرةً من الفاكهة ، كان كلما امتدت إليها يد الصغير ، قيل له إنه دواء من الأدوية .

كما كانت تحبّ الحلوى ، وتأكلها بعد وجبة الغداء ، وتقول له كلما مدّ إليها يده بخوف ورجاء :

– إنها أيضًا دواء وصفه لها الطبيب .

لكنه – كما يقول – لم يكن مقتنعًا بهذا القول . فكانت إزاء وقفته المستجدية ، كشحّاذ صغير يلتمس الحسنة ، تلقى إليه بقطعة منها قائلةً :

– خذ وروح فى داهية !

فإذا جاء موعد الغداء التالى ، ذهب إليها يمدّ يده ، كشحّاذ صغير ويقول :

– اعطينى واحدة ، وقوليلى روح فى داهية .

هذا فى الوقت الذى كان فيه أخوه الصغير لم يكن يمدّ يده بالسؤال ، بل يخطف من يدها ما يراه خطفًا ، كالصقر المنقض .

ويعلل تلك الجرأة من أخيه ، بأنها قد جاءت بالوراثة عن والدته ، فكانا بذلك من معدن واحد ، مما سبب لها كثيرًا من المتاعب . بينما كان هو يميل إلى الهدوء والتأمل ، لأنه أخذ الكثير من سمات أبيه . لكن مع بركان داخلى فى أعماقه من والدته مثل بركان « فيزوف » ينشط ويخمد فى فترات ودورات .

وكان كثيرًا ما يتحمّل ثمن شقاوة أخيه . فإذا تقاذفا بشىء أدّى إلى كسر لوح زجاج ، يأتى لهما الوالد بالفلقة ، فتكون العلقة من نصيبه وينجو الأخ من

الضرب لأنه عندما يأتى دوره يصيح ويتشنّج ويبكى ويلعن .

لم يكن طفلاً مدلّلاً .

ولم يهنأ ككل الأطفال باللعب والهدايا ، فالهدية الوحيدة التى تلقّاها من أبيه كانت عبارةً عن وابور صفيح صغير فى حجم الأصبع ، يباع بنصف قرش ، قدمه إليه ، وهو يقول :

– خد العب ياوله !

فلم يفرح به كثيرًا ؛ لأنه كان ضئيلاً جدًّا ، ولا يسير إلّا دفعًا باليد ، لا يملأ بمفتاح ، ولا يبهر لونه النظر .

ولم يكن يحتفل فى تلك الأيام بأعياد الميلاد ، وكان اليوم الوحيد الذى يشعر فيه الطفل بأنه يوم عيد ، هو يوم العيد الكبير أو الصغير ، الذى كان يتلقى فيه خمسة قروش « عيديّة » ، كان يلعب بها طوال أيام العيد ، ثم يردّها بعد ذلك إلى أهله دون أن ينفق منها قرشًا واحدًا .

ومن بين مظاهر العيد ، أن الوالد كان يصطحب الأخوين إلى محال الملابس المعروفة فى القاهرة كمحلى « ماير » و « ستاين » فيختاران الملابس الغالية ، بينما يحرص الوالد على قراءة بطاقة الثمن . . ويشير إلى البائع من طرف خفىّ ، ليأتى بالأصناف ذات الثمن الأرخص .

وكان يصاب بحمّى تلزمه الفراش ثلاثة أيام ، كلما وقع بصره على جنازة مارّة . مما جعل أهله يجنّبونه تلك الجنازات .

وفتن فى طفولته بفن العرائس « الأراجوز » خصوصًا الطبلة التى كان لها وقع السحر على نفسه . كتب فى كتاب « فن الأدب » يقول :

– إذا أردت أن تعرف ما هو أروع صوت كان يهزّ مشاعرنا ، ونحن صغار ،

فاعلم أنه صوت الطبلة ، لا طبلة الجيش المظفر ، يسير تحت نوافذنا منشور البنود ولا طبلة حراس « المحمل » تدق من فوق الجمال المزوّقة ، ولا حتى طبلة « المسحراتى » فى ليالى رمضان الساحرة ، بل طبلة صغيرة متواضعة ، هى طبلة « الأراجوز » إذا اقترب من جنبنا .

عندئذ ترى العجب ، أفواجًا من الأطفال ، يخرجون من بيوتهم ركضًا كأنهم جنود ، يهبّون من ثكناتهم على دقات طبل « الطابور » ويجتمعون كالنمل فى تلك الساحة ، حيث ينصب الأراجوز مسرحه الضيق المرتفع ، يتطلعون إليه بعيون شائعة ، وأبصار زائغة ، ينتظرون ظهور تلك الأشخاص المتحركة المتكلمة الصاخبة ، أو تلك التى نسميها نحن الكبار « الدمى » .

وظلّ شغوفًا بفنّ الأراجوز حتى بعد أن أصبح فى « زهرة العمر » وشاهد فيه رائعةً من روائع المسرح العالمى ، فيقول :

– شاهدت فى عام ١٩٣٦ رواية « فاوست » لجوته ، فى سالزبورج يخرجها المخرج العظيم ماكس راينهارت وقد رأى – إغراقًا فى طلب الروعة – ألّا يلجأ إلى مسرح أو مناظر أو ستائر ، بل يشيد بالحجر والآجر ، مدينةً بأكملها فى سفح الجبل ، هى المدينة التى تجرى فيها حوادث الرواية فى القرون الوسطى ، بكنائسها القوطية وحاناتها وبيوتها ونافوراتها ، وجعل الممثلين ينتقلون بينهما كما يتنقلون فى الحياة ، والنظارة على المدرجّات يشاهدون العرض فى الهواء الطلق .

ثم حضرت بعد ذلك فى سالزبورج نفسها رواية « الدكتور فاوست » لمارلو تخرجها فرقة « أراجوز » على مسرح للكبار . ولكن أىّ أراجوز ! ؟ لقد كانت الدمى فيه بنصف الحجم الطبيعى ، زاهيةً فى ثيابها التاريخية ، تتحرك فى مناظر خلابة من أشجار يانعة وبيوت ومدن ، تسلط عليها إضاءة تحيّر العقول لقد

كانت الجحيم التى تردّى فيها فاوست تكاد ببراعة الفن ، تكون جحيمًا حقيقةً بنار ذات لهب ، والقارب الذى أوصله إلى مملكة الموت يكاد يمخر فى أمواج ذات هدير ، والعفاريت بقرونهم والزبانية بشوكاتهم . لم يترك خيالاً لمشاهد ، ولم يعتمد على مخيلة متفرج . ولا عجب فهو يعلم أنه يتقدم إلى نظارة من الكبار .

محولجى قطارات

وكان ينبهر فى طفولته أشدّ الانبهار بفانوس رمضان . كتب عن ذلك فى كتابه « فن الأدب » يقول :

– « كم سعدنا فى طفولتنا الجميلة بشهر « رمضان » وكم شقينا أيضًا . من ذا الذى لا يذكر خفقة قلبه الصغير فى صباه ، وهو أمام حانوت « السمكرى » يقلّب أنظاره الشائعة وأبصاره الزائغة فى مختلف الفوانيس بزجاجها ذى الألوان ، ما أبهج ذلك الفانوس الأصفر الأخضر الأحمر المعلق فى القمة . ولكن ثمنه لا شكّ باهظ .

أقول ذلك لأنى لم أظفر فى طفولتى بكل ما كنت أتوق إليه من لعب ، وأصبو إليه من أشياء ، فكنت أخلقها لنفسى بخيال مشبوب ، وكان من أقرانى وجيرانى من يملك لعبًا نفيسة عجيبةً تملأ حجرته ، وتملؤنى دهشةً ، أقف بينها مشدوهًا ، وأحملق فيها معجبًا ، وألمسها مكبرًا ، وصاحبها الصغير يعبث فيها بيده الصغيرة محطمًا ومحقرًا ، كنت ولا ريب أدرك قيمتها أكثر منه وأرى فيها أشياء باهرة ، لا تراها عيناه ، وكأنّ كل لولب فيها ، أو لغز أو مفتاح ، يحرّك

كل مخيلتى ويهزّ كلّ واعيتى . كلّ ذلك لأنى لا أملكها ولا أستطيع أن أحصل عليها » .

لم تكن لديه أىّ هواية من الهوايات ، أو الألعاب الرياضية ، فيما عدا لعبة عجيبة ، شغل بها منذ الصغر . فكتب يقول :

– لم أكن بطبعى ميّالاً إلى أىَ نوع من أنواع الألعاب . اللهم إلّا لعبة محولجى « السيمفور » وأنا غلام ، عندما كنا نقطن فى دمنهور على شريط السكة الحديد . كانت نافذة حجرتى مجاورة لكشك الإشارات ، فوضعت عليها من الخارج قطعة خشب طليتها بلون « السيمفور » فكنت إذا رأيت « السيمفور » الحقيق مفتوحًا لمرور القطار ، فتحت أنا « سيمفورى » وتنبّه ذات مرة عامل الإشارات المحولجى الحقيق ، على عملى فضحك . وصار قبل أن يفتح السكة للقطارات ينظر أوّلاً إلى نافذتى ، ويغمز لى بعينه ، أن « خد بالك » القطر ظهر افتح له السكة .

تلك هى اللعبة التى كانت تروق لى فى صباى وتملؤنى متعةً وسرورًا وزهوًا أن أتصور نفسى أفتح السكة للقطار » .

ولم يتعلق بحب السباحة ، رغم نشأته على شاطئ الإسكندرية ، كما لم يتعلق بألعاب التسلية كالطاولة مثلاً ، وإنما كان يتعلق بلعبة البلياردو

حتى لعبة كرة القدم لم تستهوه أيضًا . وإن كان قد لعب وهو طالب فى مدرسة الحقوق حارس مرمى فى لعبة الكرة الشراب .

الجحش رقم (١)

ولا شكّ أن هوايته المفضلة كانت ركوب « الجحش » حيث اشتهر فيما بعد

بصداقته للحمير. تحدث عن الجحش رقم (١) فى حياته ، فقال :

– ذلك الجحش الذى اشترته لى جدّتى بمبلغ « بريزتين » أى ريال واحد . لبث يمرح فى غيط البرسيم معززًا مكرمًا ، ما لبثت أنا معه فى الريف . فما أن ولّيت ظهرى وغادرته ، حتى وضعوا على ظهره غبيط السباخ ، وقادوه ذليلاً مع غيره من الحمير ، إلى أشقّ المهام وأقذر الأعمال .

المتنبئ

والحكيم الذى تنبأ فيما بعد بقيام ثورة ١٩٥٢ قبل موعدها بسبع سنوات وأسماها فى كتاب « شجرة الحكم » الصادر عام ١٩٤٥ « الثورة المباركة » كان متنبئًا أيضًا فى أيام الطفولة .

عندما كان بيت الأسرة بجوار السكة الحديد ، أشار إلى القطار القادم ، وقال :

– إن جدّتى قادمة فى هذا القطار .

ولم يصدق أحد ؛ لأن جدته لم تأت من الإسكندرية منذ وقت طويل ، وإذا أرادت الحضور ، لابدّ من أن ترسل خطابًا بذلك .

وبعد قليل فوجئوا بالجدّة تدخل البيت حاملةً حقائبها .

ومرةً أخرى تلقّى والده برقيةً تقول إن أخاه محمود « توفى اليوم » وحزن الأب والأم ، وأخذا يتهيئان للسفر للعزاء .

فقال لهما :

– لا تسافرا . لأن عمى لم يمت .

وما انتهى من حديثه حتى دخل عليهم العم المرحوم . واتضح أن البرقية كانت تقول : « توجه اليوم » فكتبها عامل التلغراف « توفى اليوم » .